المثقف العربي والرسالة الثقافية

بقلم عدنان ابراهيم

الثقافة جزء من الحضارة ، درب من دروبها العديدة ، وجه لذات الشيء ، وليست شيئا آخر ، منفصلا وقائما بذاته . والحياة الحديثة مثل المجتمع الحديث ، كل « متكامل ومتناسق ومتواصل » واذا كان صحيحا ان هناك صورا متناقضة ومتنافرة في المجتمعات الحديثة المتطورة ، فمن الصحيح أيضا ، ان هناك تجانسا ضمن ذلك التنافر ، وتناسقا وسط الفروق ، وتواصلا بالرغم من الاستقلالية ، كما ان هناك اجتماعية او اشتراكية تتراوح حدودها ، ويختلف مقدار تحققها كما يتباين شكل ظهورها حسب الانظمة والبلدان ، لكنها موجودة ، وليس ثمة من يتحدث اليوم عن الفردية المنعزلة او الذات المعتزلة .

ولعل الاهتداء الى طبيعة الثقافة ومدلولها ، عن طريق استنطاق اللغة ، بالاستعانة بكل المعاني التي تختزنها الكلمة ، يوفر علينا خطر الضياع وسط النظريات المتعددة ، والتي تنبع من العقائد المتناقضة ، وتحاول غالبا اثبات حقيقة المعتقد قبل البحث عن توضيح المدلول والابانة عن طبيعة الشيء المدروس .

يقول العرب : ثقف السيف ، اي قومه وسواه ، ويقولون ايضا ، الولد المثقف ، بمعنى الولد الحاذق الذي يجيد ما يتعلمه ..

نستدل من هذا ، بأن الذهن العربي قد وعى طبيعة الثقافة القابلة للتقويم والتعلم والتناقل ، كما انه وعى بأن للثقافة رسالة تقضي بتقويم الاعوجاج ، والعودة بالانسان نحو الطريق السوي ، او هدايته على الصراط المستقيم .

ومن اكتمال اللوحة ، نتيجة ربط الصور والمعاني التي تزخر بها اللفظة ، نستطيع القول بأنه يتحتم على الانسان ، بخلاف الرسل الذين يتلقون الرسالة عن طريق الوحي ، الاستمرار في بذل الجهود قصد فهم الكلمات ، وتحصيل المعارف والعلوم ، وقصد اجادة الوسائل والطرق الحياتية ، التي تضمن له مغالبة المحن والصعوبات والتغلب على العقبات .

وهناك ايضا واجب المثقف ، يعني واجب ناقل الرسالة ، وهو يقضي بالنضال من اجل نشرها ، ومن اجل توضيح المعاني الغامضة ، وتقويم الامور المعوجة ، وهذا يفرض على المثقف المعاناة كما يفرض عليه التضحية ، فكما ان السيف المعوج يقابل التقويم (التثقيف) بالمقاومة، كذلك هي حال الرجل المريض والمجتمع المتخلف اللذين يقابلان الدعوة للتحرر والتقدم ، بالانهزام تارة ، وغالبا بالرفض والمقاومة ، الامر الذي يفرض على المثقف روح التضحية ، لان حامل الرسالة لا يكتفي بالتحليل العقلاني الرزين ، والابانة بموضوعية عن اماكن الخطأ وعن اسباب التقدم كما تفعله المدرسة الوضعية .

يروق للوضعيين الالحاح على فرض الثقافة التحليلي ، وهو يقضي بلجوء المثقف لاستعمال العقل قصد تحليل الاوضاع الانسانية تحليلا موضوعيا وعلميا ، واستخلاص النتائج ذات الدلالات البعيدة عن المشاعر الشخصية ، وهذا يفرض بدوره اعتبار المثقف عامة ، وعالم الاجتماع خاصة ، كمراقب يلاحظ بدقة وانتباه سير الشؤون الانسانية متابعا تطورها من الخارج ، أي بدون المشاركة في تحقيقها او صياغتها ، ثم يشرع بتحليلها واستخلاص مدلولاتها ومسالك تطورها على ضوء العقل وبالقياس على تحليل العالم للحوادث الطبيعية ، وهذا ما فعله اوغست كومت ودوركهايم وغيرهما ..

اننا نعتقد بخطأ الخلط ما بين الشؤون الانسانية والحوادث الطبيعية ، فالاولى تخضع لمشيئة الانسان ، تتأثر بعواطفه ونوازعه الى جانب خضوعها لتأثيرات البيئة ، بينما تحدث الحوادث الطبيعية بعيدا نسبيا عن الرغبة الانسانية ، بالرغم من محاولة الانسان السيطرة على تلك الحوادث واخضاعها لمشيئته .

ثم اننا نعتقد بخطأ الاكتفاء بالعقل كوسيلة وحيدة لسبر اغوار الشؤون الانسانية ، ذلك لان هناك ما ندعوه حينا بالقوى الروحية **وحينا بالعوامل المعنوية ، وما نربطه تارة بالسماء ، وتارة بالملأ الاعلى ،** وما يصدر عما ندعوه حينا بآلهة الاسطورة ، وحينا بالرب الحي الواحد ، وكذلك بالاس او الجوهر الاول او المصدر الاول الخ ..

ومهما اردنا الغلو والاغراق في نفي وجود ما يصعب على العقل اثبات وجوده كما يفعله في مجال الحوادث الطبيعية ، فاننا نحس في قرارة انفسنا بوجود تلك القوى وتلك النوازع التي تخرج عن حدود الاشياء المحسوسة ، والتي نبحث عن سرها تارة عن طريق الدين وتارة عن طريق الفلسفة والفن وتارة عن طريق التمرد والثورة ، ويحدث احيانا ، أن يبحث عنها الانسان الذي فقد آثارها على دروب الحياة ، عن طريق الانتحار .

ثم اننا نعتقد بخطأ ان يطلب من المثقف البقاء خارج مسرح الحوادث وفوق دائرة الشؤون الانسانية ، الامر الذي يعني بقاءه في برج المراقبة او في عيادة التحليل .

ليس المثقف طبيبا يفتح عيادته للمرضى ثم يغسل يديه قبل كل زيارة وبعدها ، انه انسان حي ، ومن واجبه التأثير على مجرى الحوادث الطبيعية كما ان من واجبه معايشة الشؤون الانسانية .

اذا كان المثقف قوة تنفعل وتتأثر بالعوامل الاخرى ، فهو ايضا قوة فاعلة تعمل على توجيه العلاقات الاجتماعية وصياغتها .

وكذلك الثقافة ، انها قوة تنفعل وتتأثر بالمحيط ، كما انها تخضع غالبا للتغييرات الاجتماعية ، لكنها ايضا ، وفي ذات الوقت ، قوة مؤثرة تعمل على تغيير الاوضاع الاجتماعية ، بل على قلبها احيانا كما انها تشارك في استقطاب الجماهير وتعمل على تهيئة المناخات الثورية ، ومن ثم تساهم في تحقيق الثورات .

نستطيع ملاحظة الوظيفة المزدوجة للثقافة ، اعني وظيفة الاخذ والعطاء ، التأثر والتأثير ، الانفعال الواعي والفعل المبدع الهادف ، من خلال متابعتنا للعديد من الاجيال المثقفة التي ظهرت في عدة بلدان وخلال مراحل تاريخية مختلفة . ولعلنا نجد ابرز هذه الامثلة لدى جيل **المثقفين الذين ظهروا في فرنسا قبل ثورة ١٧٨٩ وخلالها. (مونتسكيو،** فولتير ، روسو ، ديدرو الخ) . ومن ثم ، وبعد قرن تقريبا ، لدى النخبة الواعية التي برزت في روسيا القيصرية قبل ثورة اكتوبر (بوشكين ، تولستوي ، دوستوفيسكي ، غوركي .. الخ) ..

لقد وعى كل من هؤلاء وأولئك دوره في المعركة التي يخوضها شعبه والتي تخوضها الانسانية ، كما وعى كل منهم واجب المثقف وابعاد الرسالة الثقافية ، فاذا بهم يلتزمون قضايا الانسان ، واذا بهم يخوضون معركة الكلمة الصادقة والواعية والجريئة تحت راية الدفاع عن حقوق الانسان .

اننا نجد ، بالطبع ، في كتابات فلاسفة النور الفرنسيين ، كما نجد في قصائد وقصص المصلحين في روسيا القيصرية ، الكثير من آثار المجتمع الاقطاعي والكثير من سماته وطباعه : ان الدولة التي يكتب عن

شرائعها مونتسكيو ، والمجتمع النبيل الذي يحاكيه تولستوي ، دولة **بديلة للطغيان ، ومجتمع بديل للرق والعبودية . حتى الاشتراكية التي** يحكي عنها روسو وتولستوي لا تعدو حدود النوازع الانسانية التي يعبق بها عالم دستوفيسكي ، والتي تنطلق تارة من الدين السماوي وتارة اخرى من الدين الطبيعي .

وذلك التقدم الذي اراده فولتير ، والتحرر الذي دافع عنه ، هو غير التحرر الذي نريده اليوم وغير التقدم الذي نحتاجه . ذلك لان فولتير قد عاش عصره وعانى مشكلات مجتمعه وخاض المعارك من اجل تقدم ذلك المجتمع ... الم نقل بأن المثقف أبن زمانه وابن بلاده ؟ لكننا نلمح أيضا ، في كتابات هؤلاء الرواد بذور الابداع كما نلمح معالم الحياة الجديدة ، وهنا يظهر حرص المثقف على انماء العلاقات الاجتماعية وتطويرها ، وعلى الفعل والتأثير في مجرى الاحداث ، والخروج بالمجتمع او بالامة وبالانسانية من حالة الجمود الى حالة الحركة المتسارعة المتطورة .

اننا ندعو اليوم المثقف الذي يعي واجب حمل الرسالة الثقافية ويعي وضعها في المكان الصحيح ، حيث تساهم في توضيح الشعارات والمعاني والاهداف ، وترسم المسالك والوسائل والمناهج ، ثم ينظر الى كل هذا بالنسبة الى الانسان وحقه في الحياة وبالقياس الى متطلبات الحياة الانسانية ـ ندعو هذا المثقف ، بالمثقف الملتزم كما كان يدعوه الآباء بالعالم المصلح ، وفي كلا الحالين ، تحسن شدة العلاقة ما بين الالتزام الثقافي والفكري وما بين الاصلاح الاجتماعي .

وتزداد هذه العلاقة وضوحا ، كما تزداد الحاجة للربط ما بين الالتزام الفكري والاصلاح الاجتماعي الحاحا في البلدان المتخلفة ذات الجماعات والشعوب المتأخرة ، وذات الاوضاع الجامدة والآسنة ، وهنا يكتسب تشبيه المثقف بالمنارة معناه الواضح ، فكما أن وظيفة المنارة تقضي بانارة الدرب امام السفن التائهة ، قصد ارشادها الى شواطىء الآمان ، فان واجب المثقف الواعي ، يقضي بالنضال المستمر قصد توضيح معالم الدرب امام ابناء الامة ، وقصد كشف الطاقات وتوجيهها نحو الصراط المستقيم الذي يعني اليوم ، صراط التقدم الهادف والاصلاح الواعي .

وحتى لا نغرق في خضم الافكار المجردة ، نقول بأنه لا يكفي المثقف العربي تحليل الاوضاع العربية والابانة عن اسباب تخلف المجتمع العربي ، بل عليه مشاركة المواطنين ، ومعايشة القضايا القومية والشؤون الانسانية ، كما ان عليه العمل والاسهام بأحداث الانقلاب المبدع في حياة مجتمعنا العربي والجري معه نحو المستقبل الافضل والوضع الاحسن والارقى والاسعد .

لم تبخل امتنا العربية بأعطاء اعلام الفكر الحي ، كما انها لم تشح بالذين التزموا قضايا الانسان ، واستعذبوا العذاب من أجل تحريره ومن اجل تجديد حياته . واذا لم نشأ العودة نحو ماضينا البعيد ، حيث المنارات الحية ، التي جعلت من الرسالة السماوية الاسلامية ، رسالة تتسامى بالانسان نحو المساواة ونحو الوحدة ونحو العدل ، كما انها جعلت من هذه الرسالة فكرا يعلم الانسان ما لم يعلم ، ورفعت الكلمة حتى مرتبة المعجزة ، وجعلت من البحث عن المعرفة فرضا يوم كانت سلطات الدنيا تعمل على التعمية والتجهيل والتمويه ـ اذا لم نشأ العودة نحو ذلك الماضي البعيد ، فان في ماضينا القريب ما يشجع اجيالنا الحاضرة .

لقد ظهر منا عبد الرحمن الكواكبي ، وكان فكرا واعيا ، فقه معاني المرحلة التاريخية خلال القرن التاسع عشر ، وعرف واجب مجابهة الظلم والاستبداد (طبائع الاستبداد) كما انه اهتدى الى ضرورة تحرير العرب من نير الحكم التركي ، مع الاحتفاظ بوحدتهم التي تسهم في عودتهم لاداء رسالتهم الانسانية (أم القرى) ، كما انه فطن للعلاقة الشديدة ما بين الاضطهاد السياسي والظلم الاجتماعي واختار بأن يكون أبا للفقراء .

وأعطى فكرنا العربي المعاصر الافغاني ومحمد عبده وبطرس البستاني وبن باديس واليازجي وطاهر الجزائري ... وكانوا أيضا على مستوى المرحلة التاريخية .

لقد عمل هؤلاء ما كان بوسعهم لاخراج المجتمع العربي من الوقعة التي بقي حبيسها خلال السنوات الطوال ، نحو الاجواء الجديدة حيث الهواء الطلق والحياة التي تنادي أبناءها ، وقد بذلوا الجهود الواعية قصد اظهار ما تزخر به الذاكرة القومية (اللغة) من زخم وقابلية للحياة والتجدد ، وقصد ايقاظ الذهن العربي ، وحث المواطن على الشعور بمواطنيته والمشاركة في بناء الحياة الجديدة .

« تنبهوا واستفيقوا أيها العرب » قصيدة دعاها العديد من المستشرقين (بمارسييز العرب) ، فاذا أضفنا اليها بعض ما قاله **شعراء الطور الثاني وكتابه ، وهو طور التنبه الخائف ، واليقظة** المتسائلة التي نجد صورتها وصداها في ذلك التمزق الذي عاشه الذين تنادوا لسماع الاصوات المنطلقة من أعماق النفس العربية ، استطعنا الاحاطة نسبيا بذلك الزخم الباحث عن مطالع الضوء .

لقد ظهر في خلال ذلك الطور شوقي والرصافي وظهر حافظ **ابراهيم والزهاوي وجبران وابي ماضي ومي زيادة والشابي ..** وظهر أيضا بعض الذين أرادوا رؤية أوضاعنا ودراستها بالنسبة الى معطيات العقل أمثال المازني والزيات ومحمد كرد علي والسيد ... وظهر ميخائيل نعيمة ومارون عبود الخ ...

نستطيع الكلام بصدد هؤلاء عن انعتاق الذهن العربي وعن انبعاثه وتوقده وعن بداية مشاركته ومعايشته للشؤون الانسانية .

يقول البعض : انت تحكي عن كتاب لم ياتوا بجديد ، فهم ما خلا أدباء المهجر والشهابي ، ما بين مقلد قضى نحبه وهو ينهل من ينابيع السلف وما بين مجدد ما زال منكبا فوق كتاب يترجمه عن الفرنسية أو الانكليزية .

وأجيب هؤلاء ، بأن ما يلوح لنا اليوم بديهيا لم يكن كذلك منذ نصف قرن ، وان العروبة التي تجمعنا الان والتي نعمل لوحدتها وجمع شملها لم تكن سوى وجود يسعى للتحقق أو الولادة وسط حراب الاعداء الذين أرادوا خنقه قبل الولادة وما زالوا يحاولون ذبحه وهو في طور الشباب . وكذلك كان شأن ثقافتنا ، بل كذلك كان شأن اللغة العربية .

ان اللغة التي يحكيها ويكتبها اليوم ملايين التلاميذ والطلبة والمتعلمين في مختلف الاقطار العربية كانت لغة تهددها التركية في بلاد الشام والانكليزية في وادي النيل والفرنسية في المغرب . وكان من الطبيعي أن يرجع المثقف العربي نحو ما تركه السلف للاستعانة به على مجابهة التحديات ، وكان لا بد من بعث الماضي المشرق والحافز حتى لا يغرق المواطن في متاهات اليأس وحتى لا تصير نهضتنا كالشجرة التي فقدت جذورها والتي تغري الناظر بمنظرها البراق ، حتى اذا ذبلت وجب تبديلها بأخرى ثم بأخرى جديدة وهكذا دواليك ...

ثم كان لا بد للمثقف العربي من أن يتجه نحو ثمرات الفكر الاوروبي الحديث ، وأن يحاول نقل بعض ما أعطاه ذلك الفكر ، ثم يحاول تعدي الاقتباس نحو التمثل فالتعريب فالابداع .

ولعل طه حسين خير من يمثل هذه الفترة الانتقالية . لقد كان وما يزال ذلك الجسر الحي الذي نقل بوعي رسالة الاجداد نحو الاحفاد ، ونقل ما رآه جيدا وأصيلا في فكر الغرب نحو الشرق ، ثم حاول الابقاء على صلاته مع هؤلاء ومع أولئك .

نستطيع نعت طه حسين بالفكر الذي بدا يدرك ابعاد المرحلة التي عاشها والتي كانت تتمخض بالتغييرات المتسارعة التي عبر عنها وما زال يحاكيها كتاب الفترة الحاضرة .

ثم ان طه حسين قد عرف كيف يثور الشاب على جمود الشيوخ، وكيف ينعتق من تعقيداتهم ، وكيف يحلل عقدهم والقوقعة التي يتشرنقون فيها ومن حولها ، لكنه عرف أيضا حدود التجديد المبدع رافضا الثرثرة العابثة التي تقود الاديب غالبا نحو العقم القاتل .

« هكذا تكلمت الأشجار »

لا جدوى من أن تلصق أوراقا خضراء على غصن جاف.
دعنا نذبل
دعنا نفقد خضرتنا ، نصفر ، نخاف
دعنا نكتسب الالوان الجرباء
دعنا نتعرى ، نسقط
تجرفنا الريح على وجه الماء
دعنا يأكلنا الاسفلت
نسد البالوعات
نتحمل أقدام الاطفال وضغط العربات
دعنا نذوى ، نتحلل
ينمو في أعيننا الفطر
تسحقنا أحذية المطر الغاضب
دعنا نمتزج بتربة مصر السبخاء
دعنا نخصب هذي الارض الصحراء
حتى أن جاء ربيع
ان جاء
تنمو أوراق الشمس على الاشجار
ويفيض الظل نقيا كالامطار

القاهرة — **يسرى خميس**

يطول الحديث عن فكر هذه المرحلة التاريخية ومفكريها ، لكن من الجور والظلم أن ننهي الحديث بدون الكلام عن ساطع الحصري وعن زكي الارسوزي .

اذا كان لكل أمة فكرها القومي ومفكروها القوميون ، فان أمتنا العربية قد عرفت خلال طور انبعاثها الحاضر هذين المفكرين الرائدين.

يقولون ، لقد بدأ فكرنا القومي وبدأت نهضتنا العربية قبل المعلمين . هذا صحيح ، لكنه كان فكرا ضبابيا وحائرا ، كان يتعثر في سيره وتطوره ، ويحوي الكثير من الثغرات والنواقص ، ثم كان فكرا لا يميز بين الدعوة الشرقية والاسلامية والعربية ، ثم جاء الحصري منذ نصف قرن ، فاذا به يناظر ويناقش ، يعمل ويكتب ، واذا به يحلل ويناضل من أجل القضية العربية ، واذا به ، وهذا أفضل ما قام به ، ينزل بالعروبة وبالوحدة العربية ، من سماء الامال والاحلام والاماني نحو أرض الواقع حيث يتحقق الوجود العربي وحيث تخرج الفكرة من حالة التجريد نحو الواقع العملي المحسوس .

واذا كان الحصري قد اختار مجال البحث والتحليل الاجتماعيين، كوسيلة للكشف عن أوضاعنا الثقافية والاجتماعية ، وكوسيلة لتنسيق هذه الاوضاع ، وابراز العوامل والشروط القومية التي تتوفر في أمتنا بالنسبة الى العوامل والشروط التي توفرت في القوميات التي تحققت أو تسير في طريق التحقق ، فان الارسوزي قد تنبه بشكل خاص الى الاهمية التي يتميز بها اللسان العربي ، ووعي العلاقة الشديدة ما بين اللسان والفكر العربيين ، ما بين المعاني والالفاظ التي تختزنها وتحملها ، وانطلاقا من هذه الفكرة أو هذه النظرية ، أعني انطلاقا من فقه اللغة العربية ، عمل الارسوزي على سبر أغوار الكلمات ، وعلى تعرية القشور التي علقت بحياتنا وكادت تغطي حقيقتنا ومعالم حضارتنا ، في محاولة خلاقة وجديدة قصد الوصول الى جوهر الوجود العربي والحضارة العربية . ربما قال بعض الذين عرفوا الارسوزي ، انه كان لا يخلو من الفكر الضبابي ومن الافكار العامة ، غير المتسقة حينا والطوبائية أو الرومانسية حينا آخر .

وقد يكون في هذا بعض الحقيقة ، لكننا لا نستطيع فصل كتب الحصري ومحاضراته عن حياته ، وكذلك لا نستطيع فصل كتب ومحاورات الارسوزي (بالقياس الى محاورات سقراط) عن حياته .

واذا كانت حياة الحصري تبدو مستقرة بعض الشيء ، رغم تنقله المستمر ، مما أكسبه ذهنا تجريبيا ومقارنا ، فان حياة الارسوزي كانت عبارة عن سلسلة من المآسي والنكبات ، بدأت يوم بدأ يصطدم بأعداء العروبة ، ثم تأزمت يوم أضاع مسقط رأسه ـ الاسكندرون ـ وجاء طريدا مشردا مع تلاميذه . ومع ايمانه القومي الحاد الذي تحول الى ما يشبه الهوس ، وجعله أقرب الى رجل العقيدة منه الى العالم الباحث . وهذا لا يسيء الى الارسوزي ، وهو الذي أراد نفسه انسان رسالة اكثر منه مؤلف كتب أو مدبج مقالات ، وأراد أن يكون معلما للجيل أكثر منه أستاذا لمدرسة أو مناظرا لجامعة .. وأراد أن تكون حياته ، مثالا لافكاره ، نفحة رحمانية وقبسا يشع خلال الليل الحالك .

تراني شططت عن الموضوع باطالتي الحديث عن الحصري وعن الارسوزي ؟

لقد قلت بأن الذهن العربي قد وعى بأن للثقافة رسالة تعنى بتقويم الاعوجاج ، وان أوضاعنا القومية المعوجة تحتاج للتقويم ، يعني للتنسيق والتوضيح والتوحيد ، واننا نحس حالما نتحدث حاجة وضع الافكار القومية في قلب الاحاديث .

ان للثقافة رسالة ، واذا كنا لا نسمح لانفسنا بالحكم على ثقافتنا العربية المعاصرة ، في هذه العجالة ، فان من المشجع ومن المفرح أن يتنبه أحد مثقفينا المعاصرين لهذه الظاهرة المهمة فيدعو كتابه عن الادب ب « الادب المسؤول » (١) .

باريس — **عدنان ابراهيم**

(١) المرحوم رئيف خوري في كتابه الذي صدر بهذا العنوان عن دار الاداب .